موجز في التّفسير

سورةُ "الإنسان"

سليمان بيضون

* السورة السادسة والسبعون في ترتيب سوَر المُصحف الشريف، نزلت بعد سورة «الرحمن».
* سُمّيت بـ «الإنسان» لابتدائها بقوله تعالى بعد البسملة: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ ..﴾.
* آياتها إحدى وثلاثون، وهي مدنيّة، مَنْ قرأها كان جزاؤه على الله جنّةً وحريراً ، كما في الحديث النبويّ الشريف.
* ما يلي موجز في تفسير السورة المباركة اخترناه من تفاسير: (نور الثّقلين) للشيخ عبد علي الحويزي رحمه الله، و(الميزان) للعلّامة السيد محمّد حسين الطباطبائي رحمه الله، و(الأمثل) للمرجع الديني الشيخ ناصر مكارم الشيرازي.

للسورة أسماء عديدة، أشهرها: الإنسان، والدهر، وهل أتى، والأبرار، وهي مأخوذة من عبارات وردت فيها، وإن كانت الروايات الواردة في فضيلتها - كما سيأتي - سمّتها: «هل أتى» دون غيره من الأسماء.

هناك أقوال في أوساط المفسّرين حول مدنيّة هذه السورة أو مكّيتها، إلّا أنّ سبب نزولها أو على الأقلّ ما جاء في صدرها من آيات يؤكّد كونها مدنيّة. فقد نقل جمعٌ كثير من كبار العلماء من الشيعة والسنّة أنّ آيات السورة التي بدايتها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ﴾، قد نزلت في حقّ عليّ وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، في قصّة النذر المعروفة، والتي تضمّنت التصدّق بطعام الإفطار لثلاثة أيّام متوالية على المسكين واليتيم والأسير. ومعلوم أنّ ولادة الحسن والحسين عليهما السلام كانت في المدينة.

محتوى السورة

تذكر السورة خلْق الإنسان بعدما لم يكن شيئاً مذكوراً، ثمّ هدايته السبيل إمّا شاكراً وإمّا كفوراً، وأنّ الله اعتدّ للكافرين أنواع العذاب وللأبرار ألوان النعم، ثم تذكر مخاطبةَ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أنّ القرآن تنزيل منه تعالى عليه وتذكرة، فليصبر لحكم ربّه ولا يتّبع الناسَ في أهوائهم، وليذكر اسم ربّه بُكرة وعشيّاً، وليَسجد له من الليل وليُسبّحه ليلاً طويلاً. ويمكن تقسيم السورة من حيث المحتوى المتقدم إلى خمسة أقسام:

الأوّل: يتحدّث عن إيجاد الإنسان وخَلْقه من نطفة أمشاج (مختلطة)، وكذلك عن هدايته وحرّيّة إرادته.

الثاني: يدور الحديث فيه عن جزاء الأبرار والصالحين، وسبب النزول الخاصّ بأهل البيت عليهم السلام.

الثالث: تكرار الحديث عن دلائل استحقاق الصالحين لذلك الثواب في عبارات قصيرة ومؤثّرة.

الرابع: يشير إلى أهمّيّة القرآن وسبيل إجراء أحكامه ومنهج تربية النفس الشاقّ.

الخامس: جاء الحديث فيه عن حاكمية المشيئة الإلهية (مع حاكمية الإنسان).

ثواب تلاوتها

* عن النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّه قال: «**مَنْ قَرَأَ سورَةَ (هَلْ أَتى) كانَ جَزاؤُهُ عَلى اللهِ جَنَّةً وَحَريراً**».
* وعن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: « **مَنْ قَرَأَ سورَةَ (هَلْ أَتى) في كُلِّ غَداةِ خَميسٍ زَوَّجَهُ اللهُ مِنَ الحورِ العينِ.... وَكانَ مَعَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ**».

تفسير آيات منها

قوله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا﴾ الآية:١.

* سُئل الإمام الباقر عليه السلام عن قوله عزّ وجلّ ﴿لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا﴾ فقال: «**كان شَيْئًا ولَمْ يَكُنْ مَذْكورًا**».
* وعنه عليه السلام في رواية أخرى قال: «**كانَ مَذْكوراً في العِلْمِ ولَمْ يُكُنْ مَذْكُورًا في الخَلْقِ**».
* وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**كانَ مُقَدَّراً غَيْرَ مَذْكُورٍ**».

قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ ..﴾ الآية:٢.

الإمام الباقر عليه السلام في قوله عزّ وجلّ: ﴿أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾ قال: «ماءُ الرَّجُلِ وَالمَرْأَةِ اخْتَلَطا جَميعاً».

[في اللغة: الأمشاج = الأخلاط]

قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ الآية:٣.

* الإمام الصادق عليه السلام: «عَرَفْناهُ إمّا آخِذاً وَإمّا تارِكاً».

* وعنه عليه السلام: «إمّا آخِذٌ فَهُوَ شاكِرٌ، وَإمّا تارِكٌ فَهُوَ كافِرٌ».

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ الآية:٥.

الإمام الحسن الزكيّ عليه السلام: «كلُّ ما في كِتابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ قَوْلِهِ: إنَّ الأَبْرار، فَواللهِ، ما أَرادَ بِهِ إلّا عَلِيَّ بْنَ أَبي طالِبٍ وَفاطِمَةَ وَأَنا وَالحُسَيْنَ، لِأَنّا نَحْنُ أَبْرارٌ بِآبائِنا وَأُمَّهاتِنا، وَقُلوبُنا عَمِلَتْ بِالطّاعاتِ وَالبِرِّ، ومُبَرَّأَةٌ مِنَ الدُّنْيا وَحُبِّها، وَأَطَعْنا اللهَ في جَميعِ فَرائِضِهِ، وَآمَنّا بِوَحْدانِيَّتِهِ وَصَدَّقْنا بِرَسولِهِ».

قوله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ الآية:٦.

الإمام الباقر عليه السلام: «هِيَ عَيْنٌ في دارِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ؛ تُفَجَّرُ إلى دورِ الأَنْبِياءِ وَالمُؤْمِنينَ».

قوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ الآية:٧.

الإمام الكاظم عليه السلام: «يوفونَ للهِ بِالنَّذْرِ الَّذي أُخِذَ عَلَيْهِمْ في الميثاقِ مِنْ وِلايَتِنا».

قوله تعالى: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ الآية:١٣.

الإمام الرضا عليه السلام: «إنَّ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ آيَتانِ مِنْ آياتِ اللهِ يَجْرِيانِ بِأَمْرِهِ مُطيعانِ لَهُ، وَضَوْؤُهُما مِنْ نورِ عَرْشِهِ، وَحَرُّهُما مِنْ جَهَنَّمَ، فَإذا كانَتِ القِيامَةُ عادَ إلى العَرْشِ نورُهُما، وَعادَ إلى النّارِ حَرُّهُما فَلا يَكونُ شَمْسٌ وَلا قَمَرٌ».

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ الآية: ٢٠.

* سُئل الإمام الصادق عليه السلام: ما هذا المُلك الذي كبّر الله عز وجلّ حتى سمّاه كبيراً؟

فقال: «إذا أَدْخَلَ اللهُ أَهْلَ الجَنَّةِ الجَنَّةَ أَرْسَلَ رَسولاً إلى وَلِيٍّ مِنْ أَوْلِيائِهِ فَيَجِدُ الحَجَبَةَ عَلى بابِهِ، فَتَقولُ لَهُ: قِفْ حَتّى نَسْتَأْذِنَ لَكَ، فَما يَصِلُ إلَيْهِ رَسولُ رَبِّهِ إلّا بِإذْنٍ، فَهُوَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾».

* وعنه عليه السلام في معنى الآية: «لا يَزولُ وَلا يَفْنَى».

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ الآية:٢٦.

سُئل الإمام الرضا عليه السلام عن التسبيح في الآية فقال: «صلاة اللَّيْلِ».

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ..﴾ الآية:٢٩.

الإمام الكاظم عليه السلام، في معنى (التّذكرة)، قال: «.. الوِلايَةُ».

قوله تعالى: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ..﴾ الآية:٣١.

* أمير المؤمنين عليه السلام: «إنَّ اللهَ يُدْخِلُ بِصِدْقِ النِّيَّةِ وَالسَّريرَةِ الصّالِحَةِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ الجَنَّةَ».

* الإمام الكاظم عليه السلام في معنى ﴿فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ في الآية، قال: «في وِلايَتِنا».

عن الإمام الحسن المجتبى عليه السلام: «كلُّ ما في كتاب الله عزّ وجلّ من قوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ﴾... فوالله، ما أرادَ به إلا عليَّ بن أبي طالب، وفاطمة، وأنا، والحسين...»

الحُبّ
كلامٌ في معناه وتَعلُّقه بالله تعالى

العلّامة السيد محمّد حسين الطباطبائي رحمه الله

القرآن الكريم برنامج الهداية الإلهية، والوصفة الشافية لأمراض الفرد والمجتمع، وهو يهَبُ معانيه السامية للمتدبّرين في آياته، المستعينين لذلك بنور الفطرة السليمة والعقل المنفتح على حقائق الوجود. ما يلي، نموذجٌ راقٍ للتدبّر في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِۗ وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعَذَابِ﴾ البقرة:١٦٥، اخترناه من الجزء الأول من (تفسير الميزان) للعلّامة الطباطبائي رضوان الله عليه.

هناك عدّة نكات تجدر ملاحظتها عند التدبّر في هذه الآية، ومنها:

أوّلًا: التعبير بلفظ: ﴿يُحِبُّونَهُمۡ﴾، فإنّ فيه دلالة على أنّ المراد بالأنداد ليس هو الأصنام فقط، بل يشمل الملائكة، وأفراداً من الإنس الذين اتّخذهم الناس أرباباً من دون الله تعالى، بل يعمّ كلّ مُطاع من دون الله من غير أن يأذن الله في إطاعته، كما يشهد به ما في الآية التالية من قوله تعالى: ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ..﴾ البقرة:١٦٦.

وكما قال تعالى: ﴿..وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ..﴾ آل عمران:٦٤.

وقال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ..﴾ التوبة:٣١.

المراد بحبّ الله أعم من «إطاعة أمره» سبحانه

ثانياً: وفي الآية دليل على أنّ الحبّ يتعلّق بالله تعالى حقيقة، خلافاً لمن قال:

* «أنّ الحبّ - وهو وصف شهوانيّ - يتعلّق بالأجسام والجسمانيات، ولا يتعلّق به سبحانه حقيقة.

* وأنّ معنى ما ورد من الحبّ له تعالى، هو الإطاعة بالائتمار بالأمر والانتهاء عن النهي، تجوزاً، كقوله تعالى: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ..﴾ آل عمران:٣١».

فالآية حجّة عليهم، فإنّ قوله تعالى: ﴿أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ يدلّ على أنّ حبّه تعالى يقبل الاشتداد، وهو في المؤمنين أشدّ منه في المُتّخذين لله أنداداً، ولو كان المراد بالحبّ هو الإطاعة مجازاً، كان المعنى: «والذين آمنوا أطوعُ لله»، لم يستقم معنى التفضيل، لأنّ طاعة غيرهم ليست بطاعة عند الله سبحانه، فالمراد بالحبّ معناه الحقيقي.

ويدلّ عليه أيضاً – أي على تعلّق الحبّ به سبحانه – قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ..﴾ إلى قوله ﴿..أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ..﴾ التوبة:٢٤، فإنّه ظاهر في أنّ الحبّ المتعلّق بالله، والحبّ المتعلّق برسوله، والحبّ المتعلّق بالآباء والأبناء والأموال، وغيرها، جميعاً من سنخ واحد، لمكان قوله ﴿أَحَبَّ إِلَيۡكُم﴾، وأفعل التفضيل يقتضي اشتراك المفضّل والمفضّل عليه في أصل المعنى، واختلافهما من حيث الزيادة والنقصان.

اقتفاء الأثر من ثمرات الحبّ

ثالثاً: إنّه تبارك وتعالى ذمّ في الآية المتّخذين للأنداد، بقوله: ﴿يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾، ثمّ مدح المؤمنين بأنّهم ﴿أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ سبحانه، فدلّ التقابلُ بين الفريقين على أنّ ذمّهم إنّما هو لتوزيعهم المحبّة الإلهية بين الله وبين الأنداد الذين اتّخذوهم أنداداً. وهذا، وإن كان بظاهره يمكن أن يُستشعر منه أنّهم لو وضعوا له سبحانه سهماً أكثر لم يُذمّوا على ذلك، لكن آخر الآية ينفي ذلك، فإنّ قوله تعالى: ﴿إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾، وقوله سبحانه: ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ﴾ البقرة:١٦٦،

وقوله: ﴿..كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡ..﴾ البقرة:١٦٧، يشهد بأنّ الذمّ لم يتوجّه إلى الحبّ من حيث أنّه حبّ، بل من جهة لازمِه الذي هو الاتّباع، وكان هذا الاتّباع منهم لهم لِزَعمِهم أنّ لهم – أي للأنداد – قوّة يتقوَّون بها لجلب محبوب أو دفع مكروه عن أنفسهم، فتركوا بذلك اتّباع الحقّ من أصله أو في بعض الأمر، وليس مَن اتّبع الله في بعض أمره دون بعض بمتّبعٍ له، وحينئذٍ يندفع الاستشعار المذكور، ويظهر أنّ هذا الحبّ يجب أن لا يكون لله فيه سهيم وإلّا فهو الشرك، واشتداد هذا الحبّ ملازمٌ لحصر الاتّباع وقَصره على أمر الله، ولذلك مدَح المؤمنين بذلك في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِ﴾.

حبّ النبيّ والوصيّ من مصاديق حبّ الله

رابعاً: وإذ كان هذا المدح والذمّ متعلّقاً بالحبّ من جهة أثره، الذي هو الاتّباع، فلو كان الحبّ للغير بتعقيب إطاعة الله تعالى في أمره ونهيه لكون الغير يدعو إلى طاعته تعالى – ليس له شأنٌ دون ذلك – لم يتوجّه إليه ذمٌّ البتّة، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ..﴾ إلى قوله ﴿..أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ..﴾ التوبة:٢٤، فقرّر لرسوله حبّاً كما قرّره لنفسه، لأنّ حبّه عليه السلام حبُّ الله تعالى، فإنّ أثره – وهو الاتّباع – عينُ اتّباع الله تعالى: فإنّ الله سبحانه هو الداعي إلى إطاعة رسوله والآمر باتّباعه، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ..﴾ النساء:٦٤، وقال تعالى: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ..﴾ آل عمران:٣١، وكذلك اتّباعُ كلّ من يهتدي – العبد – إلى الله باتّباعه؛ كعالِم يهدي بعلمه، أو آية تُعين بدلالتها، وقرآن يقرّب بقراءته، ونحو ذلك، فإنّها كلّها محبوبة بحبّ الله، واتّباعها تُعدُّ طاعةً مقرّبة إليه سبحانه.

تلخيص ما تقدّم

فقد بان بهذا البيان:

أنّ مَن أحبّ شيئاً من دون الله ابتغاء قوّةٍ فيه، فاتّبعه في تسبيبه – أي اتّخذه أو اعتقده سبباً من دون الله – إلى حاجة ينالها منه، أو اتّبعه بإطاعته في شيء لم يأمر الله به، فقد اتّخذ من دون الله أنداداً وسيُريهم الله أعمالهم حسرات عليهم، وأنّ المؤمنين هم الذين لا يحبّون إلّا الله، ولا يبتغون قوّة إلّا من عند الله، ولا يتّبعون غير ما هو من أمر الله ونهيه، فأولئك هم المخلصون لله ديناً.

وبان أيضاً أنّ حُبّ مَن حبُّه مِن حبّ الله، واتّباعُه اتّباعُ الله، كالنبيّ وآله صلوات الله عليهم، والعلماء بالله، وكتاب الله وسنّة نبيّه، وكلّ ما يذكر الله بوجه إخلاصٍ لله، ليس من الشرك المذموم في شيء، والتقرّب بحبّه واتّباعه تقرّب إلى الله، وتعظيمه بما يُعدّ تعظيماً هو من تقوى الله، قال تعالى: ﴿..وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ﴾ الحج:٣٢، والشعائر هي العلامات الدالّة، ولم يقيّد بشيء مثل الصفا والمروة وغير ذلك، فكلّ ما هو من شعائر الله وآياته وعلاماته المذكّرة به، فتعظيمه من تقوى الله وتشمله جميع الآيات الآمرة بالتقوى.

نعم، لا يخفى لذي مسكة أنّ إعطاء الاستقلال لهذه الشعائر والآيات في قبال الله، واعتقاد أنّها تملك لنفسها أو غيرها نفعاً أو ضرّاً أو موتاً أو حياةً أو نشوراً، إخراجٌ لها عن كونها شعائر وآيات، وإدخالٌ لها في حيّز الألوهيّة وشرك بالله العظيم، والعياذ بالله تعالى.

حبُّ رسول الله صلّى الله عليه وآله عينُ حبِّ الله تعالى، واتّباعُه عينُ اتّباعه سبحانه، وتعظيمُه صلّى الله عليه وآله من تقوى القلوب

تحريرُ القرآن للعقول

الشهيد السيد محمّد باقر الحكيم

من جملة ما أُلِّف للتعرّف إلى علوم القرآن الكريم، وحاز قَصْب السبق في عصرنا الحاضر، هو كتاب (علوم القرآن) الذي كتب شطراً منه المرجعُ الشهيد السيّد محمّد باقر الصدر رضوان الله تعالى عليه، ثمّ أكمله تلميذه اللاحق بركب الشهداء المظلومين السيّد محمّد باقر الحكيم رحمه الله تعالى.

وقد رُوعي في هذا الكتاب العمق، ووضوح العرض، والمنهجية في الطرح. ومنه كانت هذه المقالة:

كانت الأساطير والخرافات شائعةً بين العرب، نظراً لانخفاض مستواهم الفكري وأُميّتهم بصورة عامّة، فكانوا يعتقدون – مثلاً – أنّ نفس الإنسان طائرٌ ينبسطُ في جسم الإنسان، فإذا ما مات أو قُتل يكبر هذا الطائر حتّى يصيرَ في حجم طائر البوم، ويبقى أبداً يصرخ ويتوحّش ويسكن في الديار المعطّلة والمقابر، ويسمّونه «الهام».

كما كانوا يعتقدون بـ«الغيلان» ويؤمنون بأساطيرها، ويزعمون أنّ الغول يتغوّل لهم في الخلوات، وكانت لهم أبياتٌ من الرَّجَز يتناقلون حفظَها، ويعتقدون أنّ فائدتها هي طرد الغيلان إذا اعترضتهم في طريقهم وأسفارهم، إلى غير ذلك من العقائد الخرافية التي كانوا يؤمنون بها.

وقد جاء القرآن الكريم برسالة الاسلام، فحارب تلك العقائد والخرافات، ومحا تلك الأوهام عن طريق تنوير عقول العرب والدعوة إلى التفكير الأصيل، والتدبّر والاعتماد على العقل، والمطالبة برفض التقليد، وعدم الجمود على تراث السلف، بدون تمحيص أو تحقيق.

وقد أدّت هذه الدعوة من القرآن الكريم إلى تعريض كلّ الأفكار السابقة والموروثة إلى الامتحان من جديد في ضوء المنطق، والعقل، وعلى هُدى الإسلام، فأسفر ذلك عن اضمحلال تلك الخرافات، وزوال تلك العقائد الجاهليّة، وتحرُّر العقول من قيودها، وانطلاقها في طريق التفكير السليم.

الدعوة إلى التأمّل في أسرار الكون

وقد حثّ القرآن الكريم، بصورة خاصّة، على التفكير في الكون، والتأمّل في أسراره، واكتشاف آيات الله المنتشرة فيه؛ ووَجَّه الإنسانَ هذه الوجهة الصالحة بدلاً من التشاغل بخرافات الماضين وأساطيرهم:

– ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ..﴾ يونس:١٠١.

– ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ العنكبوت:٢٠.

– ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ الحج:٤٦.

– ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ١٨ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ١٩ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ﴾ الغاشية:١٧-٢٠.

ولم يكتفِ القرآن بالحثّ على دراسة الكون وما فيه من أسرار، بل ربط ذلك بالإيمان بالله، وأعلن أنّ العلم هو خير دليل للإيمان به تعالى، وأنّ الإيمان يتأكّد كلّما ازدادَ اكتشافُ الإنسانِ العلمَ وتَقدُّمُهُ في ميادينه، لأنّه يطّلع على عظيم آيات الله، وحكيم صنعه وتدبيره، قال الله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ فصّلت:٥٣.

وبذلك أعطى القرآن مفهوم مواكبة الإيمان للعلم، وأنّ العقيدة بالله تتماشى مع العلم على خطٍّ واحد، وأنّ اكتشاف الأسباب والقوانين في هذا الكون يعزّز هذه العقيدة؛ حيث إنّه يكشف عن عظيم حكمة الصانع وتدبيره.

وعلى أساس هذا الموقف القرآني، وما رفضه من التقليد، وما شجّع عليه من التفكير والتدبّر، كانت الأمّة التي صنعها الكتاب الكريم مصدرَ العلم والثقافة في العالم، بدلاً من خرافات البوم والغيلان، حتّى اعترف المؤرّخون الأوروبيّون بهذه الحقيقة أيضاً، فقال المؤرّخ الهولندي رينهارت دوزي: «إنّ النبيّ جمع قبائل العرب أمّة واحدة رفعتْ أعلام التمدّن في أقطار الأرض، وكانوا في القرون المتوسّطة مختصّين بالعلوم، من بين سائر الأمم، وانقشعتْ بسببهم سحائبُ البربريّة التي امتدّت إلى أوروبا».